الأستاذ عبد الله الجاسم.. حين تصبح الذكريات تاريخًا

ليست الكتابة عن الأشخاص الذين عاصرناهم وعاشرناهم مجرد استعادة لذكريات مضت، ولا هي تسجيل لأحداث طواها الزمن، وإنما هي عمل ثقافي وإنساني يتجاوز حدود السيرة الفردية إلى حفظ الذاكرة الاجتماعية، وتوثيق التحولات الفكرية والثقافية التي شهدها المجتمع عبر أجياله المتعاقبة. فالإنسان لا يعيش منفصلًا عن زمانه ومكانه، بل يمثل جزءًا من نسيج اجتماعي وثقافي تتداخل فيه التجارب والعلاقات والمواقف، وتتشكل من خلاله ملامح التاريخ المحلي.

ومن هذا المنطلق، تكتسب المؤلفات التي يقدمها الأستاذ عبد الله عبد المحسن الجاسم أهمية خاصة، لما تتناوله من شخصيات عاصرها وعاشرها، وأخرى ارتبط بها بعلاقات الصداقة والمعرفة، فضلًا عن اهتمامه بتوثيق سير شخصيات من موطنه المطيرفي بالأحساء، إلى جانب موضوعات فكرية وثقافية وأكاديمية أخرى.

وتكشف عناوين مؤلفاته المعروضة عن تنوع اهتماماته، ومن بينها: «شخصيات عاصرتها وعرفتها»، و«أصدقاء عبر الزمن»، و«المطيرفي والذاكرة: شخصيات عاصرتها وعرفتها»، و«سيد الفكر والقوافي»، و«الكفاءات الأكاديمية بالمطيرفي».

وهذه العناوين، على اختلاف موضوعاتها، تلتقي عند محور ثقافي مهم، يتمثل في الاهتمام بالإنسان، وتوثيق حضوره، واستحضار إسهاماته، وحفظ ما يستحق من سيرته وتجربته أن ينتقل إلى الأجيال اللاحقة.

الكتابة عن المعاصرين شهادة على الزمن:

تنبع أهمية الكتابة عن الشخصيات التي عاصرها المؤلف من كونها تقدم شهادة إنسانية تنطلق من المعرفة المباشرة، وليس من مجرد جمع المعلومات من المصادر المكتوبة.

فالكاتب الذي عاش قريبًا من الشخصية، وشاركها بعض المواقف، أو تابع مسيرتها عن قرب، يستطيع أن يقدم جوانب قد لا تتوافر في الوثائق الرسمية أو السير التقليدية.

إنه يستطيع أن يستحضر طريقة تفكيرها، وأسلوب تعاملها مع الآخرين، ومواقفها الإنسانية، وطبيعة

حضورها الاجتماعي، فضًلا عن إسهاماتها العلمية أو الثقافية أو المهنية.

وهذه التفاصيل، وإن بدت صغيرة في ظاهرها، فإنها تشكل في مجموعها صورة أكثر اكتمالًا للشخصية، وتساعد القارئ على فهمها في سياقها الاجتماعي والإنساني.

غير أن قيمة هذه الشهادة تزداد عندما يحرص الكاتب على الموضوعية، ويميز بين الوقائع التي شهدها بنفسه، والمعلومات التي نقلها عن الآخرين، والانطباعات الشخصية التي تكونت لديه خلال علاقته بالشخصية.

فالكتابة التوثيقية لا تستمد قيمتها من الإشادة وحدها، بل من صدق الشهادة ودقتها وقدرتها على تقديم صورة متوازنة.

أصدقاء عبر الزمن.. تاريخ العلاقات الإنسانية:

يحمل عنوان «أصدقاء عبر الزمن» دلالة إنسانية عميقة؛ فالصداقة ليست مجرد علاقة عابرة بين شخصين، وإنما قد تكون سجًلا ممتدًا من المواقف والتجارب والتأثيرات المتبادلة.

وحين يكتب الإنسان عن أصدقائه الذين رافقوه خلال مراحل حياته، فإنه لا يوثق سيرهم فحسب، بل يستعيد معهم شيئًا من تاريخ المجتمع الذي عاشوا فيه.

فمن خلال هذه العلاقات يمكن التعرف على طبيعة الحياة الاجتماعية، ووسائل التواصل، والاهتمامات الثقافية، والظروف التي جمعت الناس، وكيف تطورت علاقاتهم مع تغير الزمن.

كما أن الكتابة عن الأصدقاء تمثل نوعًا من الوفاء الإنساني، خصوصًا عندما تتناول شخصيات رحلت عن الدنيا، أو ابتعدت عن الأضواء، أو لم تحظَ بما تستحقه من التعريف والتقدير.

ولعل من أجمل ما تحمله هذه الكتابات أنها تمنح الأشخاص العاديين مكانتهم في الذاكرة؛ فليس كل إنسان مؤثر شخصية مشهورة، وليس كل صاحب عطاء يحظى بتغطية إعلامية أو توثيق رسمي.

فقد يكون بين الأصدقاء معلم مخلص، أو مربٍّ فاضل، أو مثقف صاحب أثر، أو إنسان ترك بصمته في محيطه

الاجتماعي دون أن يعرفه جمهور واسع.

وهنا تتحول الكتابة إلى وسيلة لإنصاف هؤلاء، والاحتفاظ بشيء من حضورهم الإنساني بعد مرور السنوات.

المطيرفي.. من الذاكرة الفردية إلى التاريخ المحلي:

يبرز اهتمام الأستاذ عبد الله الجاسم بموطنه المطيرفي بوصفه جانبًا مهمًا من مشروعه الكتابي، ويتجلى ذلك في عنواني «المطيرفي والذاكرة» و«الكفاءات الأكاديمية بالمطيرفي».

وتكتسب هذه الكتابات أهمية خاصة في ظل الحاجة المتزايدة إلى توثيق التاريخ الاجتماعي والثقافي للمدن والبلدات والقرى.

فالتاريخ لا تصنعه الأحداث السياسية الكبرى وحدها، ولا يقتصر على أسماء الحكام والقادة والمشاهير، وإنما يتشكل كذلك من جهود المعلمين والعلماء والأطباء والأدباء والمثقفين وأصحاب المبادرات الاجتماعية، ومن حياة الناس اليومية وتفاعلاتهم.

والمطيرفي، بوصفها إحدى بلدات الأحساء، تمتلك ذاكرتها المحلية التي تستحق العناية والتوثيق، شأنها شأن بقية بلدات هذه الواحة العريقة.

ومن خلال الكتابة عن شخصياتها، يمكن أن تتشكل صورة تراكمية عن تطورها الاجتماعي والتعليمي والثقافي، وعن طبيعة الإسهامات التي قدمها أبناؤها في مختلف المجالات.

وهنا تبرز قيمة توثيق الكفاءات الأكاديمية؛ لأنه لا يقتصر على التعريف بأصحاب المؤهلات العلمية، بل يفتح المجال لدراسة التحولات التعليمية، وانتقال الأجيال من أنماط التعليم التقليدية إلى التعليم الجامعي والتخصصات العلمية المتنوعة.

كما يتيح للأجيال الجديدة التعرف على نماذج من بيئتها المحلية استطاعت أن تحقق إنجازات علمية ومهنية، بما يعزز الاعتزاز بالمكان والانتماء إليه.

إن البلدة التي تحفظ سير أبنائها لا تحفظ أسماءهم وحدها، بل تحفظ جانبًا من تاريخها وهويتها.

إنقاذ الذاكرة من النسيان:

من أبرز التحديات التي تواجه المجتمعات ضياع جانب كبير من تاريخها غير المكتوب برحيل الأشخاص الذين يحملون ذكرياته.

فكم من قصة إنسانية انتهت برحيل صاحبها، وكم من تجربة علمية أو اجتماعية لم تجد من يوثقها، وكم من شخصية كان لها أثر واضح في محيطها، ثم تراجع حضورها في الذاكرة بعد سنوات قليلة من رحيلها.

ولذلك فإن الكتابة عن المعاصرين تمثل سباقًا مع الزمن، ومحاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الذاكرة الشفوية قبل أن تتلاشى تفاصيلها.

وتزداد أهمية هذه الجهود عندما تُدعَّم بالصور القديمة، والرسائل، والوثائق، والتواريخ، والشهادات المتعددة، لأن ذلك يحول الذكريات الشخصية إلى مادة تاريخية يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها.

ولعل من الضروري كذلك ألا تقتصر الكتابة على الشخصيات البارزة اجتماعيًا، بل تمتد إلى أصحاب الأدوار الهادئة الذين أسهموا في بناء المجتمع دون أن تتجه إليهم الأضواء.

فهؤلاء يشكلون جزءًا أصيلًا من التاريخ الاجتماعي، وإن لم تحتفظ السجلات الرسمية بتفاصيل حياتهم.

قيمة هذه المؤلفات للأجيال القادمة:

قد يقرأ أبناء الجيل الحاضر هذه الكتب بوصفها استعادة لشخصيات يعرفون بعضها، أو أحداث عاشوا جانبًا منها، لكن الأجيال القادمة ستتعامل معها من منظور مختلف.

فبعد عقود من الزمن، قد تصبح هذه المؤلفات مصادر مهمة للتعرف على شخصيات وأحداث وعلاقات اجتماعية لم يعد الوصول إلى شهودها ممكنًا.

وقد يجد فيها الباحثون في التاريخ المحلي وعلم الاجتماع والدراسات الثقافية مادة تساعدهم على فهم التحولات التي شهدتها الأحساء، وعلى دراسة العلاقة بين الفرد والمجتمع والمكان.

كما أن هذه المؤلفات يمكن أن تسهم في تعزيز التواصل بين الأجيال، حين يقرأ الأبناء والأحفاد عن تجارب آبائهم وأجدادهم، ويتعرفون على التحديات التي واجهوها، والقيم التي حكمت علاقاتهم، والإنجازات التي حققوها.

ومن هنا، فإن أهمية هذه الكتابات لا تُقاس بعدد صفحاتها أو حجم انتشارها فقط، وإنما بما تحفظه من معلومات وشهادات قد يصعب استعادتها مستقبلًا.

الوفاء حين يتحول إلى مشروع ثقافي:

الوفاء قيمة إنسانية نبيلة، لكنه يكتسب بعدًا أعمق عندما ينتقل من المشاعر إلى العمل، ومن الذكريات العابرة إلى التوثيق المكتوب.

فالحديث الطيب عن الأشخاص قد يبقى حاضرًا في المجالس لسنوات، لكنه يظل معرضًا للنسيان والتحريف مع تعاقب الأجيال.

أما حين تتحول هذه الأحاديث إلى مؤلفات، فإنها تكتسب قدرًا أكبر من الاستمرار، وتصبح متاحة لمن لم يعاصر أصحابها أو يعرفهم.

وفي هذا السياق، يمكن النظر إلى اهتمام الأستاذ عبد الله الجاسم بالكتابة عن الشخصيات والأصدقاء وأبناء بلدته باعتباره تعبيرًا عن ثقافة الوفاء، وحرصًا على ألا تضيع التجارب الإنسانية بانتهاء زمن أصحابها.

غير أن الوفاء الحقيقي في الكتابة لا يعني المبالغة في المديح، أو إغفال الجوانب التي تكمل الصورة، بل يقتضي الإنصاف والأمانة والاعتراف بإنسانية الشخصيات وتنوع تجاربها.

فالكتابة التي تجمع بين المحبة والموضوعية هي الأقدر على البقاء، والأكثر نفعًا للباحث والقارئ.

نحو مشروع أوسع لتوثيق الذاكرة الأحسائية:

إن التجربة التي تعكسها عناوين مؤلفات الأستاذ عبد الله الجاسم تفتح الباب أمام تساؤل ثقافي مهم:

لماذا لا تتوسع مثل هذه المبادرات لتشمل مختلف بلدات الأحساء ومدنها؟

ففي كل بلدة شخصيات تستحق التعريف، وتجارب تستحق التوثيق، وذكريات تحمل ملامح مرحلة اجتماعية أو ثقافية معينة.

ولو بادر عدد من المثقفين والباحثين والمهتمين بالتاريخ المحلي إلى تسجيل سير الشخصيات التي عاصروها، وجمع شهادات كبار السن، وتوثيق الصور والوثائق القديمة، لأمكن بناء رصيد معرفي واسع يسهم في حفظ الذاكرة الأحسائية.

ومن المفيد أن تتكامل هذه المبادرات الفردية مع جهود المؤسسات الثقافية والمكتبات والجمعيات المعنية بالتراث، بما يضمن حفظ هذه المواد وفهرستها وإتاحتها للباحثين والأجيال القادمة.

فالتوثيق المحلي ليس نشاطًا هامشيًا، بل هو جزء من صيانة الهوية الثقافية للمجتمع.

ما يبقى من الإنسان بعد رحيله:

إن ما يلفت النظر في مؤلفات الأستاذ عبد الله عبد المحسن الجاسم هو حضور الإنسان في موضوعاتها؛ الإنسان الذي عاش معه، والصديق الذي رافقه، والشخصية التي عرفها، وابن البلدة الذي أسهم في نهضتها العلمية أو الاجتماعية.

وهذا الاهتمام يذكرنا بحقيقة مهمة، وهي أن المجتمعات لا تُعرف بتاريخ أحداثها الكبرى وحدها، وإنما تُعرف كذلك بسير أبنائها، وعلاقاتهم، وقيمهم، وما تركوه من آثار في حياة الآخرين.

ومن هنا، فإن هذه المؤلفات تمثل إضافة إلى جهود التوثيق الثقافي والاجتماعي، وتستحق التقدير والتشجيع، لما يمكن أن تؤديه من دور في حفظ الذاكرة المحلية وتعريف الأجيال بتاريخ مجتمعها.

فليس أجمل من أن يرد الإنسان الجميل لمن عاشرهم وعرفهم، بأن يحفظ سيرتهم من النسيان، ويمنح تجاربهم فرصة للبقاء في ذاكرة الأجيال.

ولعل أسمى ما في هذا العمل أن الكاتب لا يكتب عن الماضي ليبقى أسيرًا له، وإنما يستحضره ليمنح

الحاضر جذورًا أعمق، ويترك للمستقبل ذاكرة أكثر ثراءً.

فالذين يكتبون عن الناس لا يحفظون أسماءهم فحسب، بل يحفظون شيئًا من روح المجتمع، ويمنحون الراحلين حضورًا جديدًا، ويحولون الذكريات الفردية إلى إرث ثقافي تتوارثه الأجيال.